

المنهاج!!

العروك

أشاهدهم يتدافعون صوب الشارع، يتضحكون! يتقافزون! وعلى وجوههم مسحة من تعب غير أن الرضا يطل من نظراتهم الودودة، يسكن عيوننا والشارع المزدهم بهم ويربيع أصواتهم.. من أمام المدرسة المتواضعة واجهتني ابتساماتهم وهم يحركون أيديهم بالحب والوداع، بينما أطيّار القلب ترفرف حولهم وتمتد من احتراق روحي بالخوف عليهم حتى هدأة القلق..



يتحلّقون من حولي، ويتمادون في إظهار إصرارهم على حبسي داخل عيونهم ويضحكون.. وأحضن بالصدق أكفهم الصغيرة، فيثسخ وجهي ببقايا رصاص أقلامهم حين أقبّلها، بينما يشيرون إليّ ببهجة أعرف كيف تخضّر لها ملامحهم، وكيف تزهو وجوههم بالفرح! ينظرون إلى أصابعهم المتسخة، ثم ينظرون إلى وجهي.. يترثنون قليلاً ثم يتدققون بالحب صوبي، يلوحون بمناديلهم الورقية، فأفرّ منهم إليهم، وأجدني رغماً عني مسكونة بالبكاء والقلق!!

صغارنا إلى أين؟! إلى أي المرافق تسير سفنهم المشرعة للغد، وأنى لهم بشواطئ تحمل ملامحهم ولا تحملهم ملامحها؟

صغارنا إلى أين؟ ونحن لا نملك لهم غير الصمت ومراقبة عدوهم يقتلهم من قبل أن يولدوا، يقاوم وجودهم، يقاوم اخضرارهم، وتغيظه الأرقام!! يتتبع نسبة الزيادة في مواليدنا، ويروج لتحرر الأم من إحساسها بقيمة الحياة داخل أحشائها لقلب ينبض، ويزين القبح! تحرقه العروق الخضراء في زرعنا الكثيف حين تواجهه الشيخوخة في هشيم مجتمعه..

ينادي! وبالباطل يعلو صوته! يروج للعري في الشوارع وفي الباحات المفتوحة لشراهة الأعين، يمزق ستر الحياء من على الأجساد المرتعشة بالتخبّط، ويقلب الحقائق! يريد زمناً له وحده، وطريقاً لا تتسع لغير قدميه، يريد انتصاراً سهلاً تبدي الضحية نفسها بين يديه، يميتها من الداخل، يجفف منابع ثقافتها، فتتلقّف ملامحه وتركن للعصا التي يلوح بها. اليد الصغيرة الدافئة لم ترتعش في يدي، لم تحمل برد أصابعي وإن تسلل إليّ دقوؤها، اليد الصغيرة من يحميها إن تكوّم من حولها الجليد؟ من يجير بناره دفاء عروقها..

في فلسطين طفولة تذبذب! وفي العراق براعم تقصف لثموت، وعصاً تفرض عدلاً ترسم ملامحه يد مغموسة بالدم، نركن لليد حين نعرف الرائحة ونميزها، فالدم لنا واليد من أجلنا ترسم!! وتنبئ قاعده قتل الطفولة قبل أن تتشكل، بمقاومة التكاثر، بممارسة الإباحية وفق النموذج الغربي الذي لم يترك مكاناً للأسرة أو الفضيلة وذلك بمزيد من العري، ومزيد من الابتذال ومزيد التوغّل في عالم المتعة المجانية غير القابلة للانتهاء.. يبدؤون من دائرة المرأة! وداثرتها تحيط بكل شيء، فهي المسكن والملاذ، وهي الخصوبة للزرع الأملين بخير الحصاد.. يحاربون النطفة حين تعدّ بحملة القرآن والبندقية! يحاربون الزهر حين يلوح الدفاء باقترب القطار، ويقاومون النور حين تطل به العيون.. يجرحون بأموالهم الطائفة الأيدي الصغيرة وهي تحمل الكتب!!

يريدون لهم مناهج يفصلونها هم، وبقياساتهم الخاصة يتم ضبطها! يريدون لصغارنا ثقافة من صنعهم وملاحم من رسمهم! يريدونهم جميعاً معصوبي الأعين مقيدّي الأيدي وعلى أكتافهم العريضة عبارة (صنع في أمريكا، وتمّ تجميعه في تل أبيب)! فإن كان هذا حال صغارنا المهذّبين بثقافتهم التي لم تأخذ شكلها المكتمل بعد، ماذا نقول لمن صفق بكل أطرافه من أبناء جلدتنا في وادي عربة؟ ماذا نقول للذين داسوا الدم الفلسطيني ولم توقفهم الأشلاء، وهي ترتطم بخطواتهم بينما يتقدمون صوب المركز العلمي المشترك بين كيان غذاؤه الدم، ودولة تقف عاجزة بين فكّي كماشة، غير أنها تراهن على ضعف شهية عدوّها وهو منها يتقدّم! وتأتي القرارات بتعديل المناهج، وفتح بوابات التطبيع لإحراج عدو لم يعرف الحياء! ولم يفهم غير لغة الدم! ويعهد كثير من أقطارنا لتحرير القلب من نبضه، والليل من فجره، وذلك بتمزيق المرأة، واحراق الطفولة، وإرباك أمة (اقرأ) بمناهج لا تنتهي لأصالتها. إننا مسؤولون أمام الله عن أبنائنا، في بيوتنا تصنع ثقافتهم وبأيدينا نربيهم، وعلى أيدينا يكبرون، فلتكن الأيدي متوضّاً، وليكن كتاب الله هو المنهاج!!

جهاد الرجبي